شجرة القمر

•

للآنسة نازك الملائكة

— ١ —

على قمة من جبـــال الشمال كساها الصنوبر
وغلّفها أفق مخمليّ وجـــوّ مُعَنْبَرْ
وترسو الفراشات عنـــد ذراها لتقضي المساء
وعنـــد ينابيعهـــا تستحم نجوم السـماء
هنالك كان يعيش غـــلام بعيـد الخيـــال
إذا جاع يأكل ضوء النجوم ولون الجبال
ويشرب عطر الصنوبر والياسمين الخضِـــل
ويملأ أفكاره من شـــذى الزنبق المنفعل
وكان غلاماً غريب الرؤى غامض الذكريات
وكان يطارد عطر الربى وصدى الاغنيـــات
وكانت خلاصةَ احلامـــه أن يصيـــد القمر
ويودعـــه قفصاً من ندىً وشـــذى وزهر
وكان يقضّي المساء يحوك الشباك ويحـــلم
يوسّـــده عُشْب باردٌ عنـــد نبع مغمغِم
ويسهر يرمق وادي المساء ووجـــه القمر
وقـد عكسته ميـــاه غـدير بَرودٍ عَطِرْ
وما كان يغفو إذا لم يمرّ الضيـــاء اللذيـــذ
على شفتيه ويسقيه إغمـــاء كأس نبيـــذ
وما كان يشرب من منبع الماء ... إلا إذا
أراق الهـــلال عليه غلائل سكرى الشذى

— ٢ —

وفي ذات صيفٍ تسلل هـــذا الغلام مساء
خفيف الخطى ، عاريَ القدمين ، مشوق الدماء
وسار وئيداً وئيداً الى قمـة شاهقـــه
وخبّأ هيكله في حمى دوحـــة باسقـــه
وراح يعدّ الثواني بقلبٍ يدقُّ .. يدقُّ ..
وينتظر القمر العَذْبَ والليل نشوانُ طلْق
وفي لحظـــةٍ رفع الشرق أستاره المعتمـــه
ولاح الجبـــين اللجينيّ والفتنـــة الملهمـــه

وكان قريبـــاً ، ولم يرَ صيّادنا الباسمـــا
على التلّ ، فانساب يذرع أفْق الدجى حالمـا
... فطوّقه العاشقُ الجبليُّ ومسَّ جبينـــه
وقبّل أهـدابَهُ الذائباتِ شذى وليونـــه
وعاد به ببحار الضياء ، بكأس النعومـــه
بتلك الشفاه التي شغلت كل رؤيا قديمـــه
وأخفاه في كوخه لا يمـــلّ إليـه النظر
أذلك حلْمٌ ؟ وكيف وقد صاد .. صاد القمر
وأرقـــده في مهـــاد عبـــيرية الرونقِ
وكلّلَه بالأغـــاني ، بعينيـــه ، بالزنبق

— ٣ —

وفي القرية الجبليّـــة ، في حلقـــات السمر
وفي كل غابٍ تنادى المنادون : « أين القمر ؟ »
« وأين أشعتـــه المخملية في مرجـــنا ؟ »
« وأين غـــلائله السُحُبيّة في حقلنـــا ؟ »
« ونادت صبايا الجبال جميعاً : « نريد القمر ! »
فرددت القـــنن السامقات : « نريد القمر ! »
« مُسامرُنا الذهبيُّ وساقي صـــدى زهرنا »
« وساكب عطر السنابل والورد في شعرنا »
« مُقبّل كل الجراح وعاصرُ لون الورودْ »
« وناقل شوق الفراش لينبوع ماءٍ بَرود »
« يضيء الطريق إلى كل حُلْم بعيد القرار »
« ويُنْمي جدائلنا ويريق عليها النُضار »
« ومن أين تبرد أهدابُنا إن فقدنا القمر ؟ »
« ومَن ذا يرقّق ألحاننا ؟ من يغذي السمَر ؟ »
ولحنُ الرعـــاة تردّد في وحشة مُضنيـــه
فضجّت برجـــع النشيـد العرائش والأوديه
وثاروا وساروا إلى حيثُ يسكن ذاك الغلامْ
ودقوا على الباب في ثورةٍ ولظى واضطرام
وجنّوا جنوناً ، ولم يبقَ فوق المراقي حجرْ
ولا صخرةٌ لم يعيدا الصراخ : « نريـد القمر »

وطاف الصدى بجناحيه حول الجبـال وطارْ
الى عربات النجوم وحيث ينـام النهـــار
وأشربَ من ناره كل كـــأس لزهرة فلّ
وأيقظ كل عبيرٍ غريب ، وقطرة طـــلِ
وجمّع من سكرات الطبيعة صوت احتجاجْ
تردد عنـــد عريش الغـــلام وراء السياج
وهزّ السكونَ وصاح : « لماذا سرقت القمر ؟ »
فجنّ المساءُ ونادى : « وأين خبأت القمر ؟ »

— ٤ —

وفي الكوخ كان الغلام يضم الاسير الضحوك
ويُمْطره بالدموع ويصرخ « لن يأخذوك ! »
وكان هُتاف الرعاة يشق اليـه السكون
فيسقط من روحه في هُوَىً شرسات الجنون
وراح يصلّي لمعبوده في أسىً وانفعـــال
ويخلط بالدمـــع والملح تسبيحَـــهُ للجمال
ولكن صوت الجماهـــير زاد جنوناً وثورة
وعاد يقلّب حلْم الغـــلام على حدّ شفره
ويهبط في سمعه كالرصاص ثقيـــل المرور
ويهـــدم ما شيّدته خيـــالاتُهُ من قصور
وأين سيهرب ؟ اين يخبيء هـــذا الجبين ؟
ويحميه من سورة الشوق في اعين الصائدين ؟
وفي أي شـــيء يلفّ اشعتَه يا سمـــاء ؟
وأضواؤه تتحـــدّى المخـــابيء في كبرياء !
ومرّت دقائقُ منفعلاتٌ وقلبُ الغـــلامْ
تمزّقه مـــدْية الشكّ في حَيْرة وظـــلام
وجاء بفأسٍ وراح يشقّ الثرى في ضَجَرْ
ليدفن هذا الأسير الجميـــل .. وأين المفر ؟
وراح يودعه في اختنـــاقٍ ويغسل لونَهْ
بادمعه ، ويصب عـــلى حظه الف لعنـــه

— ٥ —

وحين استطاع الرعاة الملحّون هدمَ الجدارْ
وتحطيم بوّابة الكوخ في تعبٍ وانبهـــار

تدفّق تيارهم في هياج عنيف ونقمه
فماذا رأوا ؟ أي يأس عميق وأية صدمه !

فلا شيء في الكوخ غير السكون وغير الظلام
وأما الغلام ؟ فقد نام مستغرقاً في حلمْ
جدائله الشُقر منسدلاتٌ على كتفيه
وطيف ابتسام تلكّأ يحلم في شفتيه
ووجه كأن أبولونَ شرّبه بالوضاءه
وإغفاءةٌ هي سرُّ الصفاء ومعنى البراءه
وحار الرعاة ... أيسرق هذا البريء القمر ؟
ألم يخطئوا الاتّهام ترى ؟ ثم ... أين القمر ؟
وعادوا حيارى لأكواخهم يسألون الظلام
عن القمر العبقريّ : أتاهَ وراء الغمام ؟
ام اختطفته السَعَالى وأخفته خلف الغيوم
وراحت تكسّره لتغذي ضياء النجوم ؟
ام ابتلع البحر جبهتَه البضّة الزنبقيه
وأخفاه في قلعةٍ من لآلىء بيضٍ نقيه ؟
أم الريح لم يُبق طولُ التنقل من خفّها
سوى مزقٍ خلقاتٍ فأخفته في كهفها
لتصنع خفّين من جلده الليّن اللبنيّ
وأشرطةً من سَناهُ لهيكلها الزنبقيّ ؟

— ٦ —

وجاء الصباح بليلَ الخطى قمريّ البرودْ
يتوّج جبهته الغسقيّةَ عقدُ ورود
يجوب الفضاء وفي كفّه دورقٌ من جمال
يرشّ الندى والبرودة والضوء فوق الجبال
ومرّ على طَرَفَيْ قَدَميْه بكوخ الغلام
ورشّ عليه الضياءَ وقطر الندى والسلام
وراح يسيرُ وينجز أعمالَهُ في السفوح
يوزّع الوانَهُ ويشيع الرضى والوضوح
وهبَّ الغلامُ من النوم منتعشاً في انتشاءْ
فماذا رأى ؟ يا ندى ! يا شذى ! يا رؤى ! يا سماءْ !

هنالك في الساحة الطُحْلُبيّة حيث الصباح
يتعوّد ألاّ يرى غير عُشْب رعتْهُ الرياح
هنالك كانت تقوم وتمتدُّ في الجو سِدْره
جدائلُها كسيت خُضْرة خِصْبَة اللون ثرّه
رعاها المساء وغذّت شذاها شفاهُ القمر
وأرضعها ضوؤه المختفي في التراب العطِر
وأشرب أغصانها الناعمات رحيق شذاه
وصبّ على لونها فضّة عصرت من سناه
وأثمارُها ؟ أيّ لونٍ غريبٍ واي ابتكارْ
لقد حار فيها ضياء النجوم وغار النهار
وجنّت بها الشجراتُ المقلّدة الجامدة
فمنذ عصور وأثمارها لم تزل واحدة
فمن أيّ أرض خيالية رضعتْ ؟ اي تُربة
سقتها الجمالَ المفضض ؟ اي ينابيع عذبة ؟
وأيّة معجزة لم يصلها خيالُ الشجَر
جميعاً ؟ فمن كل غُصنٍ طريٍّ تدلى قمَر
... ...
... ...
ومرّت عصور وما عاد أهل القرى يذكرون
حياة الغلام الغريب الرؤى العبقريّ الجنون
وحتى الجبال طوت ذكره وتناست خطاه
وأقمارَهُ واناشيدَهُ واندفاع مُناه
وكيف أعاد لأهل القرى الوالهين القمر
وأطلقه في السماء كما كان دون مقرّ
يجوب الفضاء وينثر فيه الندى والبروده
وشبه ضباب تحدّر من أمسياتٍ بعيده
وهمساً كأصداء نبعٍ تفجرّ في عمق كهفٍ
يؤكد أنّ الغلامَ وقصّتهُ . . حُلم صيفٍ . .
... ...

• نازك الملائكة

حاشية الخطوط الاساسية في القصة التي تصورها هذه القصيدة مقتبسة عن اصل انكليزي ضاع في ذاكرتي منذ سنين . على ان القصيدة ليست موجة عن اى شيء ، وكل ما فيها من تفاصيل ومشاهد ورموز لي أنا ولا وجود له في الأصل.
[ن.م.]